رسالة شكر الى د.جابر قميحة

بقلم: د.ابراهيم عوض

الأستاذ الدكتور جابر قميحة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد طالعت المقال الذى كتبته سيادتك عن العبد الفقير فى العدد الماضى من صحيفة "آفاق عربية"، فأحسست كأن رصاصة قد اخترقت رأسى لا أدرى من أين، بيد أنها كانت رصاصة غير قاتلة، ثم سرعان ما تحولت تلك الرصاصة إلى طوق حديدى يضغط على الرأس بقوة، لكن دون أن يكون هناك ألم. ثم جاشت نفسى ، وكادت أن تلحق بها عيناى لولا أن تصادف أنى كنت أستعد للصلاة والخروج لبعض الأمر، فكان هذا الانشغال بالصلاة ثم مغادرة البيت سببا فى استطاعتى أن أتماسك. وقد دعوت الله ساعتها لك بالشفاء لما كنت سمعته ذات حديث مع أ. مجدى عبد اللطيف من أنك تعانى شيئا من الألم فى ساقك، كما دعوت الله ألا يأخذنى الزهو رغم أن ما كتبته جدير أن يدير الرأس دورانا. والسر فى هذا الشعور الغريب الذى خامرنى ولا أذكر أنى أحسست به من قبل هو أنك قد وصفتنى، ضمن ما وصفتنى، بأشياء أرى أنها أكبر مني. أقول هذا لا تواضعا ولا تظاهرا بالتواضع، بل ترجمة صادقة لما أشعر به فى أعماق قلبى، فقد شرفتنى بالقول بأنى"عالم جليل"، ومثل هذا الكلام قد يصدق على عالم كالشيخ شلتوت أو الشيخ أبو زهرة أو د.عبد الحليم محمود مثلا، أما إبراهيم عوض فقد رنت هذه الكلمة فى ذهنه كأنها ناقوس مصلصل لا تستطيع أن تحتمله أذناه رغم ما تدل عليه من فضل قائلها ونبله. لقد كان يكفى أن تقول إنى كاتب محب لدينه ولربه ولرسوله وصاحب أسلوب قوى مثلا ، أما " العالم الجليل " فأرى أنها كبيرة علىّ. كذلك قلت إنى رجل عظيم. وهذا، على عظمته منك، لا يصدق أيضاعلىّ فيما أرى ، إذ أين أنا من العظمة؟ وأين العظمة منى؟ إن للعظمة ضريبتها الباهظة التى لا أظن أنى دفعت منها ولا حتى معشارها، فأنا مجرد مؤلف يكتب ما يكتب آمنا مطمئنا لا يتعرض لشىء مما يتعرض له العظماء الذين لا يبالون بمال أو ولد أو صحة ، بل لا يبالون بالحياة ذاتها إذا تطلب الأمر منهم التضحية بهذه المنحة الإلهية الغالية. أما ما أشرت إليه من تجاهل الوسائل الإعلامية لما أكتب فإنه لم يعد يزعجنى كثيرا ، إذ كنت وما زلت أعالجه برفع يد الضراعة إلى مولاى راجيا منه أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم وأن يمن علىّ برضاه عنى . وكنت أيضا وما زلت أقول: لعل الله قد قدر لى هذا كى يكون عملى له

هو وحده فأثاب عليه رغم أنفى، وما أكثر ما يثاب المؤمن رغم أنفه. وأنا لا أبالى أن يكون الثواب الذى أحصل عليه برغم أنفى أو بقصد منى، فالمهم أن أثاب ، والسلام، وأن أنجو يوم القيامة من الحساب وأدخل الجنة ولا أصلى حر جهنم. نعوذ بالله من جهنم وحر جهنم! والعبد المسكين، بحمد الله وفضله، من الذين عندهم رجاء فيه سبحانه وتعالى لا تحده حدود. ومع هذا فإنى أكون من الكاذبين إذا قلت إنى لم أشعر هنا أيضا بالسعادة. إلا أن هذا الشعور بالسعادة لا يمنعنى أن أكشف عما يدور فى نفسى. لا بل إن هذا الشعور سوف يتضاعف إذا ما كشفت عن هذا الذى دار فيها. فأشكرك على هذه السعادة التى أتحت لى أن أعيش فى ظلالها منذ أن قرأت ما كتبته عنى، والتى سوف أعيش فيها إلى ما شاء الله رغم معرفتى أنى لا أستحق كل ما وصفتنى به. على أنى حين اقول هذا لا أريد أن أكون قليل اللياقة، فإن ما كتبته قد وقع من نفسى موقعا عظيما، والسبب فى هذا هو عظمة ما كتبت، فكيف كان ذلك؟

لقد خرجت على كل المواضعات التى تسود الجو الأدبى عندنا: فالمعتاد أن يكتب الصغير عن الكبير، اللهم إلا إذا كان الكلام المكتوب قد كتب على سبيل التشجيع لا التقدير، فكسرت أنت هذه القاعدة بل حطمتها تحطيما. والمعتاد أن من يريد الكتابة عن شخص ما فإنه يختار شخصا يعرفه، وقد كسرت هذه القاعدة أيضا بل حطمتها تحطيما، إذ لم تكن بيننا علاقة شخصية من قبل، ولم يحدث أى اتصال هاتفى بيننا قط، ولم نتقابل إلا مرتين يتيمتين يفصل بين كل منهما والأخرى عشر سنوات أو أكثر، وكان ذلك فى ندوتين أدبيتين لم نتبادل فيهما إلا عبارات المجاملة التى تقال فى مثل تلك الظروف. وهنا أصارحك القول بأننى لم أكن أعرف أين تسكن، إلى أن أخبرنى أحد الأصدقاء أنك تسكن الدقى. وكنت، ولا أدرى لماذا، أظن أنك من اهل مدينة نصر. وكان ذلك حين علمت بالمصادفة منذ أيام من الصديق المذكور أنه ينوى أن يزورك فى شأن من الشؤون، فسألته، إن لم يكن لديه مانع، أن يسمح لى بمصاحبته فى هذه الزيارة كى أشكرك على ما أثقلت كاهلى به وطوقت عنقى من ثنائك علىّ وكلامك الثمين عن مؤلفاتى، فرحب الرجل ترحيبا أثلج صدرى، إذ كنت أستحى أن أشكرك فى الهاتف أو حتى فى البريد الألكترونى، وهو شعور لم أمر به أيضا من قبل! كذلك فالمعتاد أن يكتب الكاتب عن شخص قد رحل، فكسرت هذه القاعدة بل حطمتها تحطيما. والمعروف أن بين المتعاصرين

تنافسا يمنع كلا منهم عادة عن الكتابة عن معاصره، وبخاصة إذا كانوا يمارسون نفس المهنة، ولم يكونوا منتمين إلى جماعة أدبية أو سياسية أو اجتماعية أو دينية واحدة ، فكسرت هذه القاعدة بل حطمتها تحطيما، فالعبد لله لا ينتسب إلى أية جهة. وقد يكون هذا مأخذا علىّ، ولكن هكذا هو الأمر فى حالتى. كما أنك فى مقالك العظيم لم تشأ، كرما منك، أن تشير إلى أى مأخذ فيما كتبت من بحوث ودراسات، والعهد فى مثل هذه المقالات أن يذكر الكاتب، إلى جانب الحسنات، بعض الملاحظات الانتقادية، على الأقل كى يكون هناك توازن فى الكلام، لكنك كسرت هذه القاعدة فيما كسرت بل حطمتها تحطيما. وفوق ذلك كله فليس عندى ما أستطيع أن أكافئك به، ومن جهتك فأنت أكبر من أن تنتظر منى أو من غيرى أية مكافأة. من هذا كله يتبين أن العظمة ليست فىّ ولا فيما كتبته أنا، بل فيما كتبته أنت. فأرجو أن تتقبل هذه الكلمة التى أعترف أن كتابتها قد أرهقتنى أيما إرهاق رغم قصرها. وهى، بكل تأكيد، أقل مما تستحق على هذا الذى دِنْتَنى به من فضل لا أستطيع أن أجازيك عليه، لكن ما لا يُدْرَك كله لا ينبغى أن يُتْرَك كله. وعند الله الجزاء الأوفى، وهو سبحانه كريم جواد، ويحب الكرام الأجواد. وأى كرم وجود أفضل من أن تدخل السرور على قلب إنسان دون أن يكون هناك أى اعتبار ذاتى مما يضعه الناس عادة نصب أعينهم فى مثل هذه المواقف؟ أشكرك مرة أخرى أجزل الشكر من أعماق قلبى، وأدعو الله لك بالشفاء، وأتركك فى رعايته سبحانه وحفظه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .